تجليات الاغتراب العربي لدى نخبة تيار القُطرية المصرية
خلال النصف الأول من القرن العشرين

*The manifestations of the Arab alienation among the elite of the
Egyptian Qotaria movement
during the first half of the twentieth century*

1- د.فتحي براي*، جامعة محمد بوضياف، المسيلة (الجزائر)

fathi.brai@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2023 /01/24 تاريخ القبول: 2023 /03/13 تاريخ النشر: 2023 /06/04

ملخص:

تصبو المحاولة إلى الكشف عن حقيقة نظرة التيار القُطري المصري ممثلة في نخبته للتوجه الفكري العربي بمصر، ومعرفة مدى سيطرة مبادئ العروبة على الهوية الجمعية المصرية. حيث بالغت نخبة القُطرية المصرية في التشديد على توجيههم نحو مصر ككيان حضاري مميز، فكانت مواقفهم تجاه العروبة شاذة غير مألوفة. كلمات مفتاحية: تيار القُطرية، النخبة المصرية، الاغتراب العربي، الهوية، التيارات القومية.

Abstract:

The attempt seeks to reveal the truth about the Egyptian Qotaria current, represented by its elites, of the Arab intellectual orientation in Egypt, and to know the extent of the control of Arabism principles over the Egyptian collective identity. The elite of the Egyptian Qotaria exaggerated their orientation towards Egypt as a distinct civilized entity, so their attitudes towards Arabism were unusual and abnormal.

Keywords: The Qotaria stream, the Egyptian elite, the Arab alienation, Identity, nationalist currents.

*- المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تعتبر الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م اكتشاف الشرق للغرب، فهي إيدان بنهاية القطيعة بينهما، إذ اكتشف الشرق حالة النهضة الغربية وفي الآن ذاته أكتشف مستوى الركود والانحطاط التي يعيشها عالم الشرق، حيث تلتها جملة من الأحداث والتطورات بمصر شكلت في مجملها عوامل مساعدة على تكوّن فكري مصري جديد، ولعل أهمها بعثات محمد علي باشا (1805-1848م) إلى أوروبا، يضاف لذلك الإصلاحات العميقة التي أجراها على مختلف الأصعدة بمصر، كما ساهم الاحتلال البريطاني في صقل التكوين الفكري للنخبة المصرية، وعمل على تغيير نسق الحياة المصرية بجميع معطياتها، وكان من آثار ذلك ظهور نخبة مصرية مشبعة بالثقافة الغربية مؤمنة بتميز الكيان المصري بنوعيه البشري (هوية مميزة للمجتمع المصري)، وكذا الكيان الطبيعي (تفرد البيئة الطبيعية المصرية)، أدى سيطرة هذه النخبة على الساحة الفكرية بمصر خلال النصف الأول من القرن العشرين إلى اعتبار كل ما هو غير مصري دخيل أجنبي ومن هذا المنطلق فإننا نسعى من خلال هذا المقال إلى الإجابة عن الإشكالية التالية: إلى أي حد أعتبرت العروبة دخيلاً أجنبياً لدى أنصار تيار القُطرية المصرية؟

محاولة منا لإيجاد مقارنة تاريخية - فكرية لطى الاستفهام السابق تتبعنا المحاور التالية:

المحور الأول: الضبط المفاهيمي.

المحور الثاني: مميزات نخبة تيار القُطرية المصرية.

المحور الثالث: صور الاغتراب العربي للنخبة القُطرية بمصر.

المحور الرابع: مبررات الاغتراب العربي للنخبة القُطرية بمصر.

المحور الخامس: المحاولات التوفيقية.

ثم خاتمة ضمناها أهم الاستنتاجات.

وخلال دراستنا للموضوع وظّفنا المنهج التاريخي الوصفي الذي يتلاءم مع طبيعة الموضوع العام،

ولجأنا إلى المنهج التحليلي في بعض مواطن البحث، والمنهج الاستنباطي بما يخدم عناصر المقال.

2. الضبط المفاهيمي:

1.2 مفهوم القُطرية:

1.1.2 الضبط اللغوي لمصطلح القُطرية:

أوردت المعاجم والقواميس معنى واحداً لمفردة القُطرية من الناحية اللغوية، حيث أجمعت على

أن: القُطرية: اسم مؤنث منسوب إلى قُطر وهو مصدر صناعي وجمعه أقطار. والقُطري يعني ناحية، جهة،

جانِب، ومنه قيل: القُطر وتعني الجملة من البلاد والنواحي تتميز باسم خاص¹، ويقابلها في اللغة الفرنسية (territorial)، وكذا الإنجليزية (territorial).

2.1.2 التوظيف الاصطلاحي:

تُستخدم لفظة القُطرية للتعبير عن قومية مرتبطة بمجال جغرافي فتوظف بما يرمي إلى القومية، ذلك أن "برنارد لويس" (Bernard Louis) يعتبر كلمة (nationality) "القُطر الذي ينتهي إليه الفرد أو المواطن"²، وبعبدا عن الجدل التاريخي الفكري الحاصل حول القومية من حيث الماهية أو التوظيف فإننا سنكتفي بما يخدم طرحنا في المقال.

2.2 مفهوم القُطرية المصرية:

لابد أن نشير إلى أن التباين المرصود حول مصطلح القُطرية لا يتجاوز النحت المصطلحي حيث يعبر عنها بالقومية الضيقة والقومية الاقليمية والوطنية الضيقة، إلا أنها في مجملها تعني "الجماعة المحدودة جغرافيا، أي المجتمع الناشئ عن العيش في مكان واحد"³، والقُطرية المصرية تعني "أن مصر أمة تضرب بجذورها في النيل كوحدة واضحة المعالم جغرافيا، يربطها تاريخ واحد، حتى الشعور بالهوية والولاء ذو الارتكاز المحلي يتمحور حول مصر"⁴، وهو السياق الذي سار فيه مختلف المثقفون والكتاب المصريون مطلع القرن العشرين، يعملون على تأكيد خصوصية الشعب المصري بنطاقه الجغرافي (النيل)، استنادا إلى خواص تاريخية أو عرقية أو جغرافية⁵، الأمر الذي أتاح لهم التكتل في شكل تيار فكري يتبنى مبدأ "مصرية مصر" ويعتبرها كيان حضاري مميز. ويرجع البعض ظهور تيار القُطرية المصرية إلى طرح نابليون بونابرت (napoléon Buonaparte) بدعايته السياسية في مصر والتناقض الأساسي للمشروع الاستعماري فالغزو يجري تصويره في نموذج تحرير لشعوب الشرق من مستبديها المحليين -أي المماليك-، كما أن ما يجري استحضاره من تيمات إنما يعني أن مستقبل مصر والعالم العربي الإسلامي لا يمكن أن يكون سوى الدولة القومية وهذا هو معنى نداءاته لتزعة وطنية

¹ - عبد الغني أبو العزم، معجم الغني، ج1، دار صادر، بيروت، 2011، ص2077.

² - Bernard Louis, *The Middle East and The Zest*, Bloomington, London, 1964, P70.

³ - عواطف عبد الرحمان، مصر وفلسطين، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1979، ص46.

⁴ - أ.جرشوني، ج.جانكوفسكي، هوية مصريين العرب والإسلام (1900-1930م)، ترجمة: بدر الرفاعي،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2013، ص33.

⁵ - سعيد إسماعيل، الفكر التربوي العربي الحديث، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت،

عربية ثم لفكرة مصرية يمكن لها أن تنسب لنفسها في نهاية الأمر تراث الفراعنة وفكرة الأمة مرتبطة بفكرة الحضارة بحيث تصبح مسألة إحياء الماضي هي ضمان مستقبل مشرق وتملك مصر هذه الخاصية المزدوجة التي تتمثل في أنها مهد الحضارة¹. كما عبّر عنها محمد حسين في قوله: "لا ينبغي أن تكون اندفاعا عاطفيا أعمى يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادئ المتزن، ولا ينبغي أن تقام على أساس من الأوهام التي لا سبيل إلى تحقيقها من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية والأحرى بالمصري أن يفكر في نفسه أولا وفي مصلحته يتفق فيها سائر المصريين وهم يعنون بها المقيمين في مصر ممن استوطنوها على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ولا يشاركونهم فيها غيرهم من المسلمين"².

وبناءً على ما سبق نستنتج أن القطرية تشتمل على عدة خصائص منها:

- أنها تُبنى على تميز الهوية المصرية بجميع مكوناتها البشرية والطبيعية.
- أنها نمط قومي إيديولوجي.
- ترتبط ارتباطا وثيقا بأرض النيل.
- ارتباط القومية المصرية بقطريتها له بُعد تاريخي ودليل على التأثير قومية أوروبا الغربية.

3. مميزات نخبة تيار القطرية المصرية:

يُعتبر مطلع القرن العشرين مميزا بمصر نظرا لظهور نخبة تختلف تماما عن سابقتها نتيجة لتفاعل جملة من العوامل أهمها التثاقف الحاصل في المجتمع المصري بفعل التواجد البريطاني وتأثيرات النخب المستفيدة من البعثات العلمية سلفا والمتشعبة بالثقافة الغربية وأهم ما ميزها ما يلي:
* العصرنة: عملت النخبة بمصر على تعميم العصرنة والحفاظ على المبادئ الأساسية للإسلام، ويتضح ذلك من خلال عمل فئة المثقفين على الدمج بين الأصالة بتفعيل العمل بأحكام الشريعة الإسلامية من جهة، والدعوة إلى المعاصرة من خلال تبني المقاربات الناجعة لتسيير مختلف شؤون الحياة.

* تطور الطبقات الاجتماعية: ونقصد بها في هذا المقام ما أفرزته الثورة العرابية (1881م)، على المستوى الاجتماعي ذلك أنها قامت كرد فعل على سيطرة الأتراك والشراكسة على مفاصل الدولة، وبغرض تسوية الوضعية تم دمج العنصر المصري في المناصب العليا للدولة، وترقية العسكريين إلى رتب عليا، ناهيك عن دخول فئة الطلبة حيز الصراع الفكري، كما أن طبقة الأعيان تداخلت مع

¹ - مجدي فارح، نقد أسطورة التنوير الكولونيالي بمصر في البدء كانت الممانعة، دار الأطلسية للنشر، تونس، 2014، ص55.

² - محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984، ص97.

المجتمع المصري مما نتج عنه بالأساس توقف تيار الهجرة العثمانية إلى مصر، كما أدى إلى أن يقلل إلى حد كبير اشتراك العنصر التركي العثماني في الإدارة المصرية¹.

* ظهور فئة الطلاب: منذ مطلع القرن العشرين طفت إلى السطح النخبوي المصري فئة الطلبة كمشارك وبفعالية في مسائل المجتمع والدولة والقضايا السياسية، وهو الأمر غير المألوف سابقاً، حيث أضافت نتيجة تكوينها العلمي والفكري نمطاً فكرياً وتصوراً جديداً وطرحاً مميزاً لمختلف القضايا².

* استمرارية النشاط السياسي: على الرغم من التواجد البريطاني بمصر منذ 1882م، إلا أن النخبة المصرية لم تتوان في الدفاع عن قضية مصر، رغم المضايقات القائمة سواء من القصر أو من بريطانيا³، وقد يُرد ذلك إلى إيمان النخبة بقضيتها دون الاستسلام لسيطرة الاحتلال من ناحية أو تواطؤ القصر معه من ناحية أخرى.

* نخبة متغربة: ونقصد بها ظهور صفوة متغربة متأثرة بالأفكار الأوروبية وهو الأمر الذي أدى إلى انتشار أفكار جديدة كالبحث في مسألة الهوية الجمعية، وانتماء الدولة، وانتهى بهم الأمر إلى تبني خط القومية الإقليمية والفكر القُطري.

* إعادة طرح موضوع الهوية: من مميزات نخبة مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين هو إعادة التفكير في حدود وطبيعة المجتمع المصري، وهي ميزة فكرية تحلت بها النخبة في هذه الفترة نتيجة لتدهور وضع الدولة العثمانية و التواجد الأجنبي بمصر.

إن ظهور طلائع نخبوية تمتلك المميزات الأنف ذكرها بمصر وقدرتها على استيعاب الوضع العالمي آنذاك (ضعف الدولة العثمانية مع استمرارية السيطرة البريطانية على مصر)، كل ذلك ساعد على تبلور الفكر القُطري المصري الذي اقتنعت به النخبة وتبنته وسارت على نهجه في مراحلها اللاحقة لا سيما معاداة كل ما هو غير مصري.

4. صور الاغتراب العربي للنخبة القُطرية بمصر:

¹ - صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري الحديث، إقرأ للطباعة والنشر، لبنان، دت، ص123.

² - عاصم محروس عبد المطلب، الطلبة والحركة الوطنية (1922-1952م)، دار الكتاب والوثائق القومية، مصر، دت، ص51.

³ - ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (1897-1939م)، ترجمة: كريم عزقول، دار نوفل، بيروت، 1983، ص78.

تعبّر بعض نماذج الاغتراب العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين بمصر اعتبار كل ما هو غير مصري "أجنبي" إيماناً منهم بمبادئ التيار القُطري، ويمكن أن تفسر هذه الحالة في إطار السعي الحثيث لإعادة تشكيل مصر المصرية "الجديدة"، ومحاولة هدم التصورات النمطية التقليدية من الاعتقاد بالانتماء العربي لمصر، كونها عملت على إخفاء شخصية مصر، فاعتُبرت العربية -حسبهم- "هي التي منعت المصرية من الإعلان عن نفسها وإطلاق كوامنها"¹، ولم يتوقف اعتقادهم إلى هذا الحد بل زادوا واعتبروا أن محو الآثار العربية الموجودة في الحياة المصرية عموماً وإزالتها شرط ضروري لتحقيق مصرية مصر²، إن ما يلاحظ خلال هذه الفترة أن الليبراليين المصريين المتعلمين في أوروبا عملوا كلهم على عزل مصر عن العرب متذكّرين عصور الفراعنة، وقد شاطرتهم هذه الأفكار مجموعة الكتاب والأدباء والشخصيات السياسية التي تربت في مصر مع بدايات القرن العشرين ميلادي³.

لقد عملت النخبة المصرية ذات التوجه القُطري على اعتبار الفكرة العربية بمصر دخيلة وغير أصيلة، وينسب لها الضرر في عدم انتشار الفكر القُطري المصري. ومن بين النماذج ما يلي:

1.4 دعم القطيعة للانتماء العربي:

وتم ذلك تحت شعار بتر كل ما هو مصري عن كل ما هو عربي فقد عبر الأديب "توفيق الحكيم" عن دعوته الملحة للأديب "طه حسين" في رسالة وجهها له يحمله فيها مسؤولية قيادة الجيل إلى التفكير في مصر بعيداً عن العروبة قائلاً: "إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط العجيب كاد ينسينا أن لنا روحاً خاصة"⁴، كما يُعرب أحمد لطفي السيد (1872-1963م) وهو أحد اعمدة التيار القُطري المصري عن رغبته الملحة في فصل كل ما هو مصري عن كل ما هو عربي فيقول: "لدينا وسائل العمل لمصلحتنا فلا يعوزنا الذكاء ولا الوطنية، ولكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم إذا كانت تجبن عن الأخذ بمنعتها وتتواكل في ذلك على أوها م يسميها البعض "الاتحاد العربي" ويسميها الآخرون "الجامعة الإسلامية"⁵، ومما يلاحظ في هذا المقام أن أحمد لطفي السيد يسوي بين الوحدة الدينية والوحدة القومية العربية ورفضه لهما إنما هو وليد فكرة المجتمع المصري المميز لديه حيث لا يُعد

¹ - أ.جرشوني، ج.جانكوفسكي، المرجع السابق، ص139.

² - أ.جرشوني، ج.جانكوفسكي، المرجع السابق، ص139.

³ - ألكسي فاسيليف، مصر والمصريون، شركة المطبوعات، لبنان، 1994، ص262.

⁴ - عواطف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص142.

⁵ - نفسه، ص54.

مصر جزء من الأمة العربية، ويضيف لومه على المصريين الذين أقاموا ولاءهم على اعتبارات غير مصرية إذ اعتبروا أنفسهم عرباً¹.

إن مختلف التطورات التي شهدتها مصر خصوصاً والمنطقة العربية شرقها عموماً خلال النصف الأول من القرن العشرين كالثورة العربية سنة 1916م وانتشار الصحافة الحرة، كان لها بالغ الأثر في توجيه الرأي العام المصري فيما يخص الانتماء العربي لمصر حيث وصفه الكاتبان أ.جرشوني وج.جانكوفسكي بأنه "الأضعف إلى حد بعيد"²، إذ لم تكن هناك بؤرة عربية تذكر، كما لم تكن هناك رغبة للثورة العربية في أي استقطاب مصري.

ومما عزز الانتماء لدى النخبة بمصريتهم ما بدر عن رئيس المؤتمر العربي بباريس سنة 1913م، الذي أعلن "أن المؤتمر يخص عرب شرق مصر"³، الأمر الذي زاد من الشرح الحاصل بين الفكرة العربية والفكرة القُطرية المصرية، وقد وُصفت العلاقة بين العرب والمصريين بما يلي: "الموقف الغالب من البدو العرب الأكثر تقليدية هو الانعزال والإحساس بالتفوق والإزدراء الكامل، فالكراهية التي يضمها سكان وادي النيل لسكان الصحراء متفق عليها، والحب كان مفتقداً بين البدوي والفلاح"⁴.

إن هذا الفكر الرافض للتوجه العربي لمصر لم يكن شاذاً خلال هذه الفترة بل أجمع عليه نخب التيار القُطري، حيث نجد أن مصطفى كامل (1874-1908م) يحمل الرأي ذاته حيث رفض إقامة خلافة عربية نهائياً وهاجم الفكرة في كتابه "المسألة الشرقية" واعتبرها مكيدة بريطانية تهدف إلى بذر الشقاق في الامبراطورية العثمانية، كما تزايدت كراهيته للاتجاهات الانفصالية العربية⁵، ووصل به الحد إلى أن اعتبر الثوار العرب ضد السلطان "خوارج وخونة"⁶. وقد صور لنا تعلقه بمصر في قوله: "بلادتي... بلادتي... لك حبي وفؤادي... لك حياتي ووجودي... فأنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر، إنني لولم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً".

¹ - محمد محمد حسين، المرجع السابق، ص10.

² - أ. جرشوني، ج.جانكوفسكي، المرجع السابق، ص38.

³ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1914م)، الأهلية للنشر والتوزيع، مصر، 1987، ص98.

⁴ - أ.جرشوني، ج.جانكوفسكي، المرجع السابق، ص39.

⁵ - نفسه، ص40.

⁶ - عواطف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص52.

وقد صور لنا سلامة موسى اختلاف وجتي النظر بين مصر والعرب فقال: "والغريب أن بعض أقطار الشرق العربي تنظر إلينا كما كانت مصر تنظر إلى تركيا عقب ثورة عرابي، وسكان هذه الأقطار يغضبون منا عندما صرحنا لهم بأننا نحب أن نقصر جهودنا على مصر، ومع ذلك يجب أن يعرفوا أن الحزب الوطني الآن يقر بخطئه في اعتماده على تركيا مدة طويلة"¹.

2.4 دعم اللهجة المصرية والدعوة لأدب قطري:

عمد القُطريون بمصر إلى رفض فكرة تعميم اللغة العربية الفصحى من حيث التعامل والكتابة بها والدعوة إلى استعمال اللهجة العامية والكتابة بالحروف اللاتينية، كما دعا أحمد لطفي السيد إلى استعمال العامية وقد سار في هذا المنحى مؤيدا للخطوات التي وطن لها المستشرق والمبشر "مولار" (moulare)، و"ويلكوكس" (wilckoks)²، وأكد أحمد لطفي السيد إلى إبطال استعمال اللغة العربية وتغيير شكل الحروف المستعملة بالحروف اللينة، وتسكين أواخر الكلمات وإحياء الكلمات العلمية وإدخالها في صلب اللغة الفصحى والنزول باللغة المكتوبة إلى ميدان التخاطب العلمي... وعبرت وجهة نظره عن الرغبة في تمصير اللغة العربية أي جعل العربية مصرية حتى أنه كتب جل مقالاته في جريدة "الجريدة" بالعامية المصرية وذلك خلال شهري أبريل وماي 1913م³. وقد أشار أحد الكتاب إلى الوضع بقوله: "أخذ كثير من الكتاب والصحافيين في مصر يناقشون ما سموه "مشكلة الكتابة والخط العربي" وهكذا نجد تأثر الرأي العام والمفكرين المصريين بأحداث إلغاء الخلافة التي كانت مظهرا من مظاهر التجاوب العام بين تركيا والعالم الإسلامي عامة ومصر خاصة"⁴.

على الرغم من تجذر اللغة العربية في مصر إلا أنها "لا تعتبر نفسها عربية خالصة"⁵، ويبرر الباحث ألبرت حوراني الموقف المصري من عروبتهما بسيطرة التيار الفرعوني على الساحة الفكرية المصرية، غير أنها لم تنتشر كما أريد لها، حيث لم تجد من يتبناها باستمرارياً ويدافع عنها⁶. ولعل أن اهتمام المصريين بقضية استقلالهم لم تُتَح لهم الفرصة للبحث في الهوية العربية لمصر بأكثر عمق،

¹ - سلامة موسى، "أوكار الرجعية بمصر"، المجلة الجديدة، مصر، ع2، 01 فيفري 1930، ص267.

² - أنور الجندي، أكدوبتان في تاريخ الأدب الحديث لطفي السيد-طه حسين، دار الأنصار، القاهرة، 1979، ص29.

³ - نفسه، ص29.

⁴ - محمد محمد حسين، المرجع السابق، ص96.

⁵ - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص301.

⁶ - ألكسي فاسيليف، المرجع السابق، ص254.

حتى أن "رفاعة الطهطاوي" رغم أنه يعترف بوجود هوية عربية لمصر إلا أنها تضمحل أمام الولاء للوطن المصري الذي يقول به ولا يقول بالوطن العربي ولا بالشعور المشترك بين الناطقين بالضاد¹. وعلى مستوى آخر يخص اللغة العربية كأحد مقومات الهوية العربية، فقد عمد القوميون المصريون المتطرفون إلى رفض فكرة اللغة العربية الفصحى من حيث التعامل والكتابة بها، والدعوة إلى استعمال اللهجة العامية والكتابة بالحروف اللاتينية، "ولكن هذه الآراء لم تجد من يتبناها ويدافع عنها"².

عبر "طه حسين" كأحد أعمدة التيار القُطري المصري عن موقفه من الأدب العربي في كتابه "من الشاطئ الآخر" قائلا: "لا بد أن الألهة القديمة لبلاد العرب لم يكن لها أي حظ من الخيال، وأن حياتها كانت كئيبة بالفعل فهي لم تلهم المؤمنين بها أيّاً من المظاهر الفنية التي أغدق بها على غيرهم من الشعوب"³.

كما أن موقفه من اللغة العربية لم يختلف عن موقفه من آدابها، حيث دعم المصرية قائلا: "العربُ ازدروا اللغة الوطنية شيئاً ما، وكان طبيعياً أن يشفق الناس من أن تصبح الفرنسية والإنجليزية مع مرور الزمن وسيلة الشباب إلى التعبير، ولكن الانقلاب الناجم عن الحرب الكبرى قد اقتربن برد فعل مضاد، فقد أراد البعض (تمصير المسرح)، وأخذ عدد من الكُتاب يؤلفون مسرحيات بعضها جاد وبعضها هزلي، كان له حظ أكبر من النجاح لأنه كُتب بـ(اللغة العامية)"⁴. لقد كان للأدب العربي بمصروفق نظرة القُطريين "صورة سلبية كالنظرة الشائعة لديهم عن العرب ككل"⁵. حتى أن تعريفهم للأدب العربي كان سلبياً، فالأدب العربي "أدب آسيوي نتاج للصحراء، فهو مصور فوتوغرافي للحياة البدوية ولوسائل معيشة العرب، ولمراعهم الجافة الفقيرة، ولأسواقهم وخيامهم وجمالهم، ولأطلال ديارهم المهدامة ومضارهم وأكوام الروث"⁶، إن هذا الأدب لا يعبر إلا عن بدوي مرتحل غير متحضر وليس إلا "مجموعة من أهازيج بدوية تافهة حول الفخر والحماسة والهجاء، يحقرون فيه من

¹ - أنور الجندي، المرجع السابق، ص 89.

² - ألكسي فاسيليف، المرجع السابق، ص 254.

³ - طه حسين، من الشاطئ الآخر، ترجمة: عبد الرشيد الصادق محمودي، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2008، ص 45.

⁴ - نفسه، ص 45.

⁵ - أ.جرشوني، ج.جانكوفسكي، المرجع السابق، ص 163.

⁶ - نفسه، ص 164.

شأن جارهم"¹. وعن تمصير الأدب العربي كتب توفيق الحكيم، "لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفا نقيض، مصر هي الروح، هي السكون، هي الاستقرار، هي البناء!... والعرب هي المادة، هي السرعة، هي الزخرف، مقابلة عجيبة، مصر والعرب وجهها الدرهم وعنصرها الوجود، أي أدب عظيم يخرج من هذا التقليح، إني أومن بما أقول وأتمنى للأدب المصري الحديث هذا المصير"².

ويدعو "طه حسين" إلى تطويع اللغة العربية حتى تتماشى مع المصرية، "إن أعمالاً بهذه الجودة -يقصد أعمال توفيق الحكيم- تُثير الدهشة في العالم العربي، وتبعث على أكبر الآمال فيما يتصل بمستقبل الأدب المسرحي، فتوفيق الحكيم في بداية الطريق لكنه سيتحسن، وسيطوع اللغة العربية بما يكفي لتتحمل كل ما يفرضه المسرح من أعباء فادحة شديدة الدقة على السواء، واني لأرجو مخلصاً أن يكون مثاله مثمراً بقدر ما يغدو نجاحه حافزاً للآخرين"³، ويؤكد في ذات المنحى على قدرة المصريين على تطويع اللغة العربية حتى تصبح مصرية ويرفض بذلك سلطة رجال الدين على اللغة العربية، يقول: "اللغة العربية وما يُضفي عليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة دين، لغة وطنية مُلك لنا نتصرف منها ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها"⁴.

إن المتتبع لمقالات الكاتب توفيق الحكيم يُدرك أنها لم تضيف كثيراً إلى ما قدمه سلامة موسى وحسين هيكل، لكنه ببلاغته في التعبير وموقفه المتطرف في ازدراء كل ما هو عربي ذهب أبعد منهم، فبينما اتخذ غيره من المثقفين أصحاب الاتجاه القُطري المصري من التحليل المتوازن ذريعة للتعرض للعيوب الفنية العربية، اكتفى توفيق الحكيم بمجرد إصدار حكم مزدور "للأدب البدوي للعرب"، إن مهمة القُطريين المصريين هي تحرير الأدب المصري من نير هذا التأثير البدوي، وتخليص مصر من النفوذ العربي الدخيل الذي إلتصق بجسد مصر كالطفيليات، طالما ساد الأدب العربي مصر، ولا إمكانية لخلق ثقافة قومية مصرية مستقلة وأصيلة⁵. كما وصف توفيق الحكيم وضع الأدب العربي قائلاً: "حظُّ العربي... أمة نشأت في فقر لم تعرفه أمة غيرها... صحراء فقراء... قليل من الماء يُثير الحرب والدماء... أمة لاقت الحرمان وجهاً لوجه... لذلك كل تفكير العرب، وكل فن العرب في لذة الحسنِّ والمادة، لذة سريعة منهومة مختطفة، اختطافاً لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف"⁶.

¹ - نفسه، ص 165.

² - توفيق الحكيم، مصر بين عهدين، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1988، ص 219.

³ - توفيق الحكيم، المرجع السابق، ص 48.

⁴ - أنور الجندي، محاكمة فكر طه حسين، دار الاعتصام، القاهرة، ط 8، دت، ص 93.

⁵ - أ. جرشوني، ج. جانكوفسكي، المرجع السابق، ص 173.

⁶ - توفيق الحكيم، المرجع السابق، ص 214.

ونفس الرؤية يحملها أحمد أمين تُجاه الأدب العربي الذي يعتبره لا يتمشى وظروف ومتطلبات المجتمع المصري في القرن العشرين، وقد مثلت المقالات المنشورة بالمجلة "الجديدة" خلال الفترة (1929-1931م) عن عُربة الأدب العربي بمصر، حيث فتحت صفحاتها لإطلاق هجمات نقدية عنيفة تُجاهه، ذلك أن خطها الافتتاحي ومبدؤها الصحفي مبني على التوجه المصري الصّرف¹.

إننا نعيب على "طه حسين" رفضه للغة العربية وأدائها، حيث اعتبرها أجنبية لا بد أن تُطوع لما يتمشى والتمصير، في حين أغفل النقد للغات الأجنبية التي دخلت مصر كالفرنسية منذ حملة نابليون بونابرت 1798م واللغة الإنجليزية منذ التواجد البريطاني بمصر 1882م وما تلاهما من حملات تعريبية عن طريق البعثات والمستشرقين، إن ذلك مردّه للفكرة التي آمن بها طه حسين وهي أن مصر جزء من أوروبا ودعوته الصريحة لمتوسطية مصر من حيث الهوية، وعدم إتباع الشرق العربي.

وفي السياق ذاته دعا "سلامة موسى" إلى استخدام اللهجة المصرية "اللغة العامية" مكان اللغة العربية كونها لغة المستقبل²، يقول سلامة موسى: "لنا من العرب ألفاظهم ولا أقول لغتهم، بل لا أقول كل ألفاظهم، فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية، وهي لغة بدوية لا تكاد تكمل الأداء إذا تعرضت حالة مدنية راقية كتلك التي تعيش طهرانينا الآن"³. ويضيف سلامة موسى قوله: "والغريب أن بعض أقطار الشرق العربي تنظر إلينا كما كانت مصر تنظر إلى تركيا عقب ثورة عرابي، وسكان هذه الأقطار ي غضبون منا غذا ما صرحنا لهم بأننا نحب أن نقصر جهودنا على مصر، ومع ذلك يجب أن يعرفوا أن الحزب الوطني الآن يقر بخطئه في اعتماده على تركيا مدة طويلة"⁴.

ودعما للتوجه القُطري للأدب المصري نشرت صحيفة السياسة الأسبوعية بياناً تحت عنوان "دعوة إلى خلق الأدب القومي" يدعو فيه إلى خلق أدب محلي يتميز بالطابع المصري، وعبر عنه "الأدب المصري الذي نعنيه إنما هو أدب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدها"⁵، في ذات

¹ - أ.جرشوني، ج.جانكوفسكي، المرجع السابق، ص176.

² - محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة الإسلامية، دراسة للقضية العربية في خمسين عامه (1875-1925م)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1985، ص35.

³ - أنور الجندي، تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين (1920-1940م)، دار الاعتصام، القاهرة، 1988، ص176.

⁴ - سلامة موسى، "تاريخ الوطنية المصرية"، الهلال، مصر، ع3، 01 جانفي 1928، ص267.

⁵ - محمد زكي عبد القادر، "دعوة إلى خلق الأدب القومي"، السياسة الأسبوعية، مصر، ع325، 22 جوان 1930، ص05.

السياق ودعمًا للدعوة إلى تمصير الأدب العربي دعت جماعة المثقفين والأدباء الذين يهدفون إلى "إبداع أدب مصري يصور أمانينا وآمالنا، يصور نيلنا وأرضنا المليئة بالسحر والجمال، يصور الروح المصرية في القصة والفكاهة والمسرح، ويكون له طابع متميز عما للأدب الغربية والشرقية الأخرى"¹.

رغم الحملات التغريبية للغة العربية وأدائها بمصر إلا أن هناك عوامل ساهمت في الحفاظ عليها مثل "مدرسة العلوم" التي تأسست سنة 1871م بإيعاز من علي مبارك والتي لعبت دوراً هاماً فيما بعد عن طريق ما تخرج منها من أجيال على دفع عملية النهضة واليقظة الوطنية والقومية، حيث أنها صانت اللغة وبعثت ثرائها وجددت فيها وأعطتها روحاً جديداً وتمكنت من أن تسلك طريقاً وسطاً بين الأزهريين وبين المتأوربين من خريجي المعاهد الحديثة². وقد وصفها "محمد عبده" أنتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة في نفسي وما أعتقده من منزلتها من اللغة العربية، الناس يذكرون اللغة العربية وإهمال أهلها لتقويمها ويوجهون اللوم إلى الحكومة، إن باحثاً مدققاً إن أراد أن يعرف أين تموت اللغة وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في هذا المكان³.

5. مبررات الاغتراب العربي بمصر:

كتبت الباحثة عواطف عبد الرحمان في إطار سعيها لإيجاد مبرر للاغتراب العربي بمصر تقول: "رغم انتشار الإسلام على أيدي العرب في مصر فإن السيادة العربية لم تستمر بل انتقلت إلى عناصر إسلامية أخرى مثل المماليك والعثمانيين، وكان الإحساس السائد في مصر هو الإحساس الإسلامي وليس الإحساس القومي، علاوة على ذلك المعنى الذي أحاط بكلمة عرب بين الناس لاسيما في مصر والذي كان من أهم العوامل التي أدت إلى تباعدهم عن الفكرة العربية لأن الناس صاروا يستخدمون هذه الكلمة للدلالة على البدوي غير المتحضر فأخذوا يعتبرونها مقترنة بالتأخر والهمجية مما استوجب تنصل المتحضرين من العروبة وابتعادهم عنها"⁴.

إنه من الأهمية أن نشير إلى أن التناقض بين القطرية المصرية والقومية العربية ظل قائماً ذلك أن الصراع بين التواجد العثماني والاستعمار الأوروبي ألقى بظلاله على ذلك الصراع بينهما حيث أن اكتمال القومية العربية يحد من التواجد العثماني واكتمال القومية المصرية مرهون بتحقيق التحرر من التواجد البريطاني، وتبرر الباحثة عواطف عبد الرحمان هذا التناقض بظروف موضوعية للقضية المصرية، حيث أن مصر لم تدرك وحدة المعسكر التركي-الأوروبي رغم تناقضاته، كما لم تدرك أن

¹ - محمد محمد حسين، المرجع السابق، ص 151.

² - منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار أقرأ، لبنان، 1986، ص 122.

³ - طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، مصر، 1944، ص 279.

⁴ - عواطف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 47.

الحلفاء الطبيعيين لمواجهتها للاستعمارهم الشعوب العربية فاستعانة مصر بالخلافة لإنهاء الاحتلال حال دون وجود تفاهم بين المصريين وعرب المشرق العربي الذين تربطهم علاقة استعمار بالتواجد التركي ببلادهم¹.

وإجمالاً فإن انشغال العرب بقضاياهم الوطنية وعدم إدراكهم لقضايا عصرهم فلم يفهموا حقيقة الاستعمار وضرورة التوحد خلال مرحلة الجمعيات السرية وإهمال مصر وبذلك استمر ابتعاد مصر عن الحركة العربية حتى بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني، كما أن عدم مشاركة مصر في المؤتمر العربي بباريس سنة 1913م، مع استبعاد قضيتها من البرنامج كلها مدعاة لتحسس غربة الفكرة العربية بمصر².

إضافة لما سبق فإن هناك جملة من المبررات التي تعزى لها غربة العروبة لدى نخبة التيار القُطري المصري منها:

- النمو التاريخي المتميز الذي تفرد به المجتمع المصري، فالاستقلال الذي حصلت عليه مصر طبقاً لمعاهدة لندن سنة 1840م منح مصر شخصية متميزة عن سائر الوطن العربي الخاضع للحكم العثماني المباشر.

- نمو القومية المصرية بشعاراتها ورموزها المختلفة وخاصة التوجه الفرعوني³ الذي أدى إلى إعاقة انتشار التوجه العربي لمصر.

- الدور الذي لعبه الاحتلال البريطاني في عزل مصر عن العالم العربي من خلال دعم التوجه القُطري المصري.

- الدور السلبي لبعض العرب المشاركة خلال مرحلة الاحتلال البريطاني لمصر خلف أثراً سلبياً في الأوساط المصرية⁴.

ويمكننا أن نصنف الرفض المصري للفكرة العربية بأنها "إحدى طرق تأكيد الذات القومية، إذ لا تعد مصر جزءاً من العالم العربي وأنها تشغل مكاناً خاصاً في الحضارة العربية الإسلامية، كما لو كانت تشغل مرتبة أعلى من الآخرين"¹.

¹ - نفسه، ص45.

² - عواطف عبد الرحمان، ص61.

³ - كمال إسحاق فريد، محنة الهوية المصرية، رياض للطباعة، القاهرة، 2001، ص38.

⁴ - سلامة موسى، أوكار الرجعية بمصر، المرجع السابق، ص433.

6. المحاولات التوفيقية:

في ظل احتدام الصراع بين القُطرية والتوجه العربي بمصر ظهر جيل آخر حاول رآب الصدع بين مصر والفكرة العربية مثله على وجه الخصوص "ساطع الحصري" الذي كان معارضا للإقليميين الذين يقولون بأهم متميزة داخل العالم الناطق بالضاد لقد صرف كثيرا من الوقت محاولا إقناع المصريين بأنهم جزء من العالم العربي، فراح يكتب في هذا السبيل، غير أن تيار القُطرية المصرية في توجيهه الفرعوني أو المتوسطي لم يترك مجالاً للقومية العربية، كما أن جيله من القوميين العرب². أيضا كانوا يميلون إلى التطلع إلى بغداد لا إلى القاهرة وإلى الاعتقاد أن الأمة العربية إنما تنتهي عند صحراء سيناء³.

كما يُحسب لساطع الحصري ما قدمه في سبيل استرجاع مكانة التيار القومي العربي لمصر بعد تلك الفترة فكتب قائلا: "لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في إنهاض القومية العربية لأنها تقع في مركز البلاد العربية بين القسمين الإفريقي والآسيوي منها، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التي انقسم إليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف وهذه الكتلة قد أخذت حظا أوفر من الحضارة العالمية الحديثة وقد أصبحت مركز من مراكز الثقافة في البلاد العربية وهي أغنى هذه البلاد بأجمعها كما أنها أقدمها في تشكيلات الدولة العصرية وأقواها في الآداب وأرقاها في الفصاحة"⁴.

وفي إطار رد المفكر ساطع الحصري على آراء وتوجهات نخبة التيار القُطري بمصر قال: "إنني لست متخوفا أو متشائما من شيوع وذيوع الآراء الانفصالية إنني أعتقد أنها نوع من غيوم اليأس التي تستولي على النفوس عادة عندما تُمنى بالإخفاق في تحقيق مشروع من المشاريع المحببة إليها في مرحلة من مراحل العمل من أجلها ولكنها لا تلبث أن تنقشع وتزول عند التفكير في الأمور بشيء من الهدوء وعند العودة إلى العمل مع شيء من الحزم والأمل"⁵.

¹ - ألكسي فاسيليف، المرجع السابق، ص 262.

² - Azouri Nadjib, *La Reveil du Nation Arabe*, Universel Paris, 1985, P38.

³ - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 321.

⁴ - ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 75.

⁵ - ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص 96.

وتعتبر الدعوة إلى إعمال العقل في قضية "الاهتمام بالأدب القومي وإهمال الأدب" والتي دعا إليها الكاتب علي العناني في مجلة الهلال سنة 1933م، إحدى المحاولات التوفيقية لاسترداد قيمة الأدب العربي العام بمصر حيث كتب قائلاً: "تصدر مصر فريق غير ناضج في الثقافة مدعياً معرفة كل شيء، وناصباً نفسه إلى الإرشاد في كل شيء أو بعبارة عامة إلى القيادة الفكرية، ولا يتورع هذا الفريق - مع الأسف - عن التعرض لما لا يعرف ويقرر حكمه فيه والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، نذكر من بينها الدعوة العجيبة إلى اشتغال الشباب المصري بأدب قومي مصري، وما يتبع ذلك من إهمال جانب الأدب العربي العام، وبربك خبرني أين هو الأدب القومي المصري؟ أهو أدب الفراعنة أم أدب العرب المصريين؟ وفي أي لغة على كل حال قد دون هذا الأدب؟ أفي اللغة الهيروغليفية؟ أم في لغة العرب؟"¹. وبالجملة فهذه الفكرة الزائفة ليس فيها سوى إغراء الشباب ضد الحضارة العربية والتضليل به في هذا السبيل²، ومع نهاية النصف الأول من القرن العشرين انحسر تيار القُطرية المصرية ولاح في أفق الفكر المصري التوجه العروبي بوضوح وزاد أكثر بعد نجاح ثورة الضباط الأحرار سنة 1952م وتبنيها للخط العروبي كخيار قومي.

6. خاتمة:

- بعد عرضنا لموضوع الاغتراب العربي لنخبة مصر القُطرية خلال النصف الأول من القرن العشرين يمكننا أن نخلص بما يلي:
- أنصار التيار القُطري المصري جيل شباني متشبع بحب مصر تغلب عليهم النزعة الليبرالية تجلت في دعوتهم إلى إحياء شعور إقليمي مبني على وحدة جغرافية صغيرة هي مصر فقط.
  - تيار القُطرية المصرية تيار قومي يؤمن بالقُطر الجغرافي ولا يعترف بالأسس التقليدية للقومية من تجانس عرقي ولغوي وديني، بل يكتفي بالرابطة التي تجمعهم للعيش في مكان واحد.
  - مواقف نخبة التيار القُطري المصري من الانتماءات غير المصرية البحتة كالتوجه العربي لمصر مثلاً، مبني بالأساس من تكوينهم العربي الليبرالي.

¹ - علي العناني، "نقد"، الهلال، مصر، ع1، س42، 01 نوفمبر 1933، ص49.

² - محمد محمد حسين، المرجع السابق، ص175.

- يُفسر النفور المصري من الموروث العربي بسعهم إلى غرس الصورة السلبية للفكرة العربية بغية تأكيد الأصالة المصرية.

- عمل أنصار التوجه العربي بمصر على التوفيق بين وجهات النظر للإبقاء على نزعة مصرية متوازنة وبعث توجه عربي يخدم القومية العربية ويحافظ على الخصوصية القطرية لمصر.

7. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

(أ) باللغة العربية:

1. أجرشوني، ج. جانكوفسكي، هوية مصر بين العرب والإسلام (1900-1930م)، ترجمة: بدر الرفاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2013.
2. ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (1897-1939م)، ترجمة: كريم عزقول، دار نوفل، بيروت، 1983.
3. ألكسي فاسيليف، مصر والمصريون، شركة المطبوعات، لبنان، 1994.
4. أنور الجندي، أكلدوبتان في تاريخ الأدب الحديث لطفي السيد- طه حسين، دار الأنصار، القاهرة، 1979.
5. أنور الجندي، تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين (1920-1940م)، دار الاعتصام، القاهرة، 1988.
6. أنور الجندي، محاكمة فكر طه حسين، دار الاعتصام، القاهرة، ط8، دت.
7. توفيق الحكيم، مصريين عهدين، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1988.
8. ساطع الحصري، آراء و أحاديث في القومية العربية. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990.
9. ساطع الحصري، آراء و أحاديث في الوطنية والقومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987.
10. سعيد إسماعيل، الفكر التربوي العربي الحديث، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1987.
11. صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري الحديث، إقرأ للطباعة والنشر، لبنان، دت.
12. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، مصر، 1944.
13. طه حسين، من الشاطئ الآخر، ترجمة: عبد الرشيد الصادق محمودي، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2008.

14. عاصم محروس عبد المطلب، الطلبة والحركة الوطنية (1922-1952م)، دار الكتاب والوثائق القومية، مصر، دت.
  15. عبد الغني أبو العزم، معجم الغني. دار صادر، بيروت، 2011.
  16. علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1914م)، الأهلية للنشر والتوزيع، مصر، 1987.
  17. عواطف عبد الرحمان، مصروفلسطين، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1979.
  18. كمال إسحاق فريد، محنة الهوية المصرية، رياض للطباعة، القاهرة، 2001.
  19. مجدي فارح، نقد أسطورة التنوير الكولونيالي بمصر في البدء كانت الممانعة، دار الأطلسية للنشر، تونس، 2014.
  20. محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة الإسلامية دراسة للقضية العربية في خمسين عاما (1875-1925م)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1985.
  21. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984.
  22. منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار إقرأ، لبنان، 1986.
- (ب) باللغة الأجنبية:

1. Azouri Nadjib, **la Reveil du nation arabe**, universel, paris, 1985.
2. Bernard louis, **The Middle East and the zest**, Bloomington, London, 1964.

● المقالات:

1. سلامة موسى، "أوكار الرجعية بمصر"، المجلة الجديدة، مصر، ع2، 01 فيفري 1930.
2. سلامة موسى، "تاريخ الوطنية المصرية"، الهلال، مصر، ع3، 01 جانفي 1928.
3. علي العناني، "نقد"، الهلال، مصر، ع1، س 42، 01 نوفمبر 1933.
4. محمد زكي عبد القادر، "دعوة إلى خلق الأدب القومي"، السياسة الأسبوعية، مصر، ع325، س5، 22 جوان 1930.